



الرجل الذي لا يقاوم

للأستاذ نجيب محفوظ

ناحيته على عهدها ، وأخلص لها الحب ، وليس هذا بالشيء الذي يستهان به في مثل عصرنا هذا . وتحمل في سبيلها أذى كثيراً دأب والدها على توجيهه إليه قبل أن يملعه اليأس من إذعان كريمته إلى قبوله . وفوق هذا ، فلم يكن مما يجذب إليها جاذب الطمع في مال أو جاه أو ترق ، فكان حبه خالصاً تقياً . على أنه لم يعرف عنه مع ذلك أنه كان يفض الطرف قط عن حسان السكاكيني أو الظاهر ، وما كان يستطيع ذلك ، ولكن الحق الذي لا صراء فيه أنه احتفظ بقلبه وحبه لها دون بنات حواء جميعاً ... وشاء الحب أن يختتم ألم السنين بهذا الزواج . فقال أناس : إنه إذا كان الحب قد حكم أن يدعوها دوماً إلى حدائق القبة وبساتين غمرة ، فالزواج لا شك محبسهما في بيته إلى الأبد ، وأنه لن يرى بعد ذلك اليوم صابر أفندي إلا حين ذهابه إلى مصالحة الميكانيكا والكهرباء ، أو عند أوبته منها . وصدقت فراستهم ، ولكن شهراً واحداً رؤى للشباب بعده ذات مساء يفشى قهوة كان دائم للتردد عليها أيام عزوبته ، وقد انفخت فيه الحياة الجديدة نضارة وسعادة ، فبدأ أنيقاً جميلاً ، فلم يدهش لذلك رفاقه وتلقوه فرحين ... ففضى بنصيب حيناً وبماود أحياناً ، ثم اخفق رديحاً طويلاً فظنوا جميعاً أنه آثر هدوء البيت على ضجيج القهوة ، ولكن واحداً ممن يتطوعون لإذاعة الأخبار قال إنه يراه كل مساء يجلس أمام « صالون الكمال » في شارع قمر لا يبرح مكانه حتى يثلق « الصالون » أبوابه حوالي الساعة العاشرة . فوقع القول من النفوس موقع الدهشة وتساءلوا عما يفري صاحبهم بتجنّبهم وملازمة صالون الكمال . وكان بينهم خبثاء متطفلون فلم يهدأ لهم بال حتى أرسلوا رسولاً منهم يستطلع الخبر . وعاد الرسول بما هو ادعى إلى الدهشة ، والإنكار قال : إن صابر عبد الخالق يسمى وراء حب جديد ، وإن التي شتمته جبا هذه المرة معلمة بروضة الأطفال تقيم بشقة في العمارة رقم ١٠ بشارع البستان المواجه لصالون الكمال ...

كيف أمكن أن يحدث هذا التحول للغير ؟ هل خبا الحب الذي صمد للشذائد عشر سنوات بهذه السرعة ؟ . . . ترى هل خنقه الملل في شهر وبعض شهر ؟ . . . أم بددته الخيبة وانقشاع الأوهام ؟ . . . وكيف مكن أن ينزع قلبه إلى

في تلك اللحظة التي لا تنسى حين وجه المأذون سؤاله الفاتح إلى صابر أفندي عبد الخالق : « هل تقبل نكاحها ؟ » . ثم عطفه إلى الأنسة حياة الخضيرى قائلاً : « هل تقبلين نكاحه ؟ » . في تلك اللحظة التي لا تنسى تهد قلبان ارتياحاً وغبطة بعد أن احترقا شوقاً وجوى عشرة أعوام تصاوى مائة عام مما تمدون . وقد لمجت الألسن بالخبر للمعيد أكثر مما ألفت أن تلهج بنبأ زواج . لأن الحب الذي آلت بين هذين الشخصين عشرة أعوام طوال كان ذاع أمره ، وجرى مجرى الأمثال ذكره ، فمدا نادرة يطرب لها للكواعب ويستدفى بها المجائر في أحياء غمرة والسكاكيني والظاهر وغيرها من الأحياء القريبة التي شاهدت من آياته ما تهز له النفوس وتحقق للقلوب . وقد طغى هذا الحب واستبد . فهزه بالكبرياء ، وأزال للفوارق واستأداهما ما يطيقان وما لا يطيقان من التصبر والتجملد والإخلاص والوفاء ، فأديها إليه عن طيب خاطر ، وقدما على مذبحه للقرابين طاماً بعد عام . أما حياة فهي كريمة الميديل شلي الخضيرى تاجر الأخشاب ذى الثروة الواسعة والجاه المرض ، والمكانة الملحوظة في أسواق التجارة وميادين السياسة والحياة النيابية ، وكانت إلى هذا حصناء في مقبل العمر مشهوداً لها بالجمال للقائق والرشاقة للفاننة . وأما صابر فن أسرة فقيرة من عامة الشعب ، ارتقت به مدرسة الصنائع إلى وظيفة مهندس كهربائي بمصلحة الميكانيكا بمرتبة ستة جنيهات . فوهبته قلبها وجمالها وصدقته المودة والإخلاص ، وأعرضت وفاء له عن عشاق ملحين عنيدين ، ورفضت أيدي شبان ذوى حسب ونسب وجاه ، منهم طبيب وجيه ، وضابط بوليس يبيت شريطه الأحمر بالأفئدة . فلم تطع سوى قلبها العاشق المفتون . وحافظ هو من

امرأة أخرى بهذه السهولة بعد أن تعود على حب زوجها ذلك
الدهر الطويل؟

قبل أن نجيب على هذ الأسملة ينبغي أن نعرف أكثر
مما عرفنا إلى الآن من هو صابر عبد الخالق؟

هو شاب في الثلاثين له فضائل وله رذائل، مثل جميع الناس .
فمن فضائله احترامه لنفسه وحرصه على كرامته ومحافظة على
آداب البيئة وتقاليدها المتوارثة ، وإن كان يشوب حماسه لهذه
الفضائل ضيق آفاته وانحصار ذهنه ونحل تفانته مما يجعله يتحدر
في كثير من الأحيان إلى السلف والتمصب . وأما رذائله فهي
أدنى إلى الفسادة منها إلى الشر وتدور جميعها حول الفرور ،
والفرور الوجه إلى مزاياه الجسدية قبل كل شيء . نعم لا أنكر
أنه عظيم الثقة بمواهبه العقلية وقدرة اللغوية كالمهندس قبليل
النظير، ولكن نبيه بحسنه واعتداده بجأله يفوقان كل تقدير .
وليس تمت شك في أنه يحظى بقسط من الوسامة والجمال فقد
خلق الله له عيني سوداويين بظلمهما حاجبان مقرومان ، وأنفاً
مستقيماً . ولكن عجيبة فاق حسنه كثيراً وغلب أمره على فعاله
وأقواله، وكان أصراً ملحوظاً لدى رفاقه منذ الصغر فاستبقوا إلى
المبت به تارة بإطراء جماله ، وتارة بإبداء إشفاقهم على الحسان
من وقته وفله . فذا خطر له على بال أنهم يمزأون به؛ وازداد عجباً
وما تم أن غدا عجيبه داء لا شفاء منه . ولذلك كان أحب الأشياء
إلى نفسه أن يقف أمام المرأة يطلع صورته المحبوبة وقوامه الرشيق
ويطيل النظر إلى عينيه العجاويين وثمره المليح المفتر عن ابتسامه
وضاءة ، الكلال بشارب « كلارك جابل » . كما كان أشق الأمور
على نفسه أن يسي إلى اقتناء بذلة يلف بها حسنه وشبابه . فذا
كان يطمئن ذوقه حتى يطوف بمحلات القاهرة للتجارة جميعاً
فاحصاً مفاضلاً بين الأصناف والألوان ، ومتى وفق إلى اختيار
لون منها واجه متاعب التفصيل ، وتجاذبت عقله الوداد الحديثة ،
وأنهكت قواه البروقات المتباينة ؛ ثم يمضي في تحيير القميص
الموافق للبدلة ، ورباط الرقبة الملائم للقميص ، والمندبل الوائم لرباط
الرقبة ، ولا ينسى — إتماماً لتناسق العام — الحذاء والجورب
المناسين . كان متأنقاً شديد الحساسية إلى حد الإرهاق . فكان

الكواء يوجه إلى ثيابه عناية لا يوجهها لثياب أحد من زبائنه
الآخرين . ويحلف الحلاق أنه يلقى في ترجيل شعره وتطرية شاربه
من الجهد ما لا يلقاه طبيب يتصدى لحالة وضع خطير

لهذا لم يكن عجباً أن يستهين بتضحية زوجته في سبيله ، وأن
ينكر على القائل قوله : إن إخلاصها له نعمة يحسد عليها . بل كان
في أعماقه يمتقد أنه صاحب الفضل وأنها صاحبة الحظ التي يحسد لها
عليه بذات حواء جميعاً . كيف لا وقد وقف عليها جماله الذي تقتتل
عليه أجمل الحسان؟... وقصة حبه الجديد آية على غروره قبل كل
شيء . فلم تكن إلا أنه رأى فتاة تمير شارع للساحدار ذات أسيل
فراقه منظرها ، لأنها كانت ذات قد رشيق ووجه شمري مستدير
رقيق القدمات . يولد تناسقها في النفس اشتياقاً ويؤثر في الصدر
حرارة . فتبدي على وجهه الرضاء وهز رأسه طرفاً كأنه يتابع لحناً
شجياً . وكان إلى جانبه ساعتئذ شباب من معارفه لم يفته ما بدا
عليه . فأدنى رأسه من أذنه وقال بلهجة ذات معنى :

— حذار فالنظرة إلى هذه تعقبها حسرة

فأنكر صابر قول صاحبه وسأله ببساطة وعيناه تمتعبان الفتاة
المجدة في السير :

— وله ؟

فقال للشاب بنحيت :

— لأنها فتاة جد ، لا تلوى في سبيلها على شيء ولا تمير
المغازلات أدنى للتفات . وما تزال تتردد كل صباح وكل مساء
ما بين بيتها في شارع البستان وروضة الأطفال بشارع الساحدار
مقتحمة أنظار المتطفلين كأنما تحتفظ بقلبها في صندوق منلق
ضائع المفتاح

فساءه هذا الوصف وأحس بمرارة لما آانس فيه من تحذ.
وقال متفلسفاً على قدر عقله :

— قلب أي امرأة في صندوق ضائع المفتاح كما تقول ، والعبرة
بالرجل الأريب الذي يقدر على الظفر بهذا المفتاح . وهز منكبيه
بإستهانة وابتسم ابتسامه ساخرة مشبمة بالثقة والعلمانية ، وودع
الفتاة التي شارفت نهاية الطريق بنظرة وعيد . ولم يكن يداخله
أى شك في قدرته وفنه ، ولا ترعزعت ثقته بنفسه قط ، ومع

ولكنه سار في طريقه غير حافل بتذمرها ، لأنه كان عتيداً مثابراً ملحاحاً ؛ فكان جزاؤه نظرة أشد من نظرة الأمس . وفي اليوم الذي يمهده خرجت عن صمتها بأن قالت له بلهجة خشنة صارمة : « من فضلك بلاش قلة أدب » . وفي اليوم الرابع قالت له بنفس اللهجة « شئ بارد » . وقالت له في اليوم الخامس وهي تحدجه بنظرة وعيد « إذا لم ترتدع عن هذا السلوك الشائن ناديت الشرطى » ، ولما كانا في اليوم السادس لاذت بالصمت يأساً وتجاهلته ، ولكنها لم تناد الشرطى ، فتهد ارتياحاً وعد سكونها فوزاً مبيتاً . وأخذته نشوة طرب فسأل لسانه بكلام - وإن يكن مبتذلاً غاية الابتذال ، ويحفظه جميع من هم على شاكلته عن ظهر قلب - إلا أنه كان يحسبه من الرق للترامية كمنظرة عينيه سواء بسواء . قال لها : « يا معجباً بنفسه يا شديد الجفاء بغير سبب . يا تياها بجاله ، هل ذنبي أنا أنك جميل ولا نظير لك في الكائنات . وهل جرى أن لي قلباً يشمر ويهم بالجمال . أصبح أن تنذرني بالأمس بالشرطى . وهل ينادى للشرطى للماشقين ... للشرفاء ... أمثالي ، ومع ذلك نادى للشرطى ، بل نادى الموت نفسه فلن أبرح حتى أسمع من الفم الصغير هذا - الذى يحاول خنق ابتسامه بريئة بغير ذنب - ما يدنيني إلى أمل ... »

ولم يمد يده يفتح بالمطاردة للتقصيرة التي تبدأ في شارع الملحدار وتنتهى في شارع للبستان ، ووجد في موقع صالون الكمال من المهارة رقم ١٠ ما يشقى شوقه وطممه . فانضم إلى زبائنه وتودد إلى صاحبه وجعل منه نأديه المفضل على كل مكان

وكان يندفع يادى الأمر - كما قلنا - بقوة غضب ورغبة في الغلبة . وكان يعتزم أن يقف ويتراجع حين تلين وتراخي . وكان يهود من كل مطاردة - في أول عهده بها - ولا فكر له إلا عنادها وصلفها وغضبه وحنقه . ثم أخذت صور أخرى منها تتسلل بمهارة فائقة إلى مخيلته مثل قدها الرشيق وعنقها الطويل وقسماتها الصغيرة المتناسبة . ومضت هذه الصور ترحف على وجدانه من سراديب حواسه وتندس إلى زوايا قلبه وهو لاه عنها بحمته وكفاحه . فندا يترضى لها مسوقاً بأشواق وحنين . وملبياً نداء يصمد من أغوار نفسه حتى أقر أخيراً في إشقاق وقلق وذعر

ذلك لم يرشح قلبه ، ووجد في كلام صاحبه تحدياً صريحاً لا يجوز السكوت عليه ؛ وجعل يتساءل في غيظ وحنق : ترى هل يمكن حقاً أن تفتح هذه الملهمة إذا تصدى لها ... ؟

هل يستمسى عليه المشور على المفتاح للصانع ! وتكدر صفوه تلك الليلة . وفي أسيل اليوم لثاني قصد إلى شارع الملحدار ، ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يدفع بنية يتحرج لها ضمير زوج مخلص مثله ، وإنما سافه انفعال غضب وعاطفه لا تنتكب الحق إذا قلنا إنها علمية إلى درجة ما ، لأنها كانت تتشوف إلى التحقق والتجريب . قصد إذاً إلى شارع الملحدار وانتظر . ثم رآها تبرز من باب المدرسة بقدها المشوق . فوثب وتحفز حتى إذا ضارت منه على مرمى نظرة سددها إليها عينيْن فانيين ، ولكنها سارت لا تلوى على شئ ، كما قال صاحبه ، وضاعت للنظرة في الفضاء متضممة إلى أمرتها من الأنوار الكونية . فأحس بخيبة وأحنقه جفاؤها السكمنى ، فصر على أسنانه وسار في أعقابها . ومضى يشاهد خصرها الدقيق وردفها المستوى ويقول لنفسه متزكياً « لو أصابها النظرة لذاب جفاؤها كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس » . وأراد أن يلفتها إليه ، وتجنح وسمل سملة مؤدبة ، ولكنها لم تبد أدنى اهتمام ، فأوسع الخطى حتى حاذها ، وكاد أن يلمس كتفها ، فأوسمت الخطى بدورها لتسبقه فاستبقا . وأدركت بلا ريب أن شخصاً يطاردها فالتفت نحوه بنضب ، وكان يتربص للفرصة السميدة فسوب إليها نظرته المشهورة ، فردت عليها بنظرة عنيفة كأنها تقول له : « مكانك يا هذا » . وتندحت عن سبيلها منعطفة إلى اليسار ثم انتهت المطاردة بانهاؤها إلى المهارة رقم ١٠ بشارع البستان وتردد أمام المهارة مرتين ، ولم يجد بداً من العودة فقفل راجعاً . وكان مهموماً مفتاً كمن يقفل من معركة دامية لا مطاردة غرامية . وما كان يشمر بأى إحساس من أحاسيس الحب أو الفتنة ، ولكن كانت تضطرم في قلبه عواطف الكفاح والقتال وبات ليلته وقد صدقت عزيمته على الجهاد إلى النهاية

وتوجه في أسيل غده إلى المكان نفسه - وانتظر حتى رآها تسير نحوه في مشيتها التي تجمع بين الرشاقة والشدّة فتبها على الأثر ، وأدرك لأول وهلة أنها لا تجهل تعبه لها وأنها برمة ضيقه به ،

في الساعة الرابعة مساءً . وكان يترنم بأغنية بصوت خافت متناسياً أشجان قلبه إلى حين ، وفتح باب شقته في هدوء وهم بالدخول ، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع الآنسة درية . وخفق قلبه خفقة شديدة انحلمت لها ضلوعه ، وصاح وهو لا يدري : « أنت » . ولم تكن أقل منه دهشة ، فرددت قوله : « أنت » . وعند ذلك فقط أدرك أن زوجه تقف إلى جانبها ، وإلى يمينها أخوها الصغير « توتو » ممسكاً في يده بكرامة . . . وصرت به لحظة رهيبة أحس بأن الأرض تميده ، ولغه ذهول قهار ، فلم يستطع أن يكتم عواطفه ولا أن يداري انتضاحه ، وكانت الزوجة تراقبهما بينين صرابتين وقد امتقع وجهها وارتمدت شفتاها، ثم ارتسمت على فمها ابتسامة صفراء وسألت المعلمة قائلة بصوت متهدج :

— هل تعرفين زوجي ؟

ولم تدر الفتاة بماذا تجيب ، وقد دوت في أذنها كلمة « زوجي » دويًا مرعجًا ، فرددت عينيها بين صابر وزوجه ثانية ، ثم خفضت عينيها الزائغتين واستولى عليها اليأس والغضب وانفلتت إلى الباب لا تلوي على شيء ، ولم تنبس بكلمة ولم تترك وراءها مكانًا لشك أو ارتياب

وكانت الزوجة تشر بالفتور الذي اعتور علاقتهما وتتهجير في تصرف أسبابه ، فعلت أن لها غريزة وأن غريزتها هي معلمة « توتو » الجديدة، فمضت غضبة نفست عن صدرها للكظيم . ونمت للفضيحة إلى أمها ، فاستفحل الخطب ، ولم تفته الليلة حتى حمل صابر حقيقته وعاد إلى بيته وحيداً كئيباً . . . ولكن الله سلم؛ ولم ييخل عليه بالفقران القلب الذي صدقه الحب عشرة أعوام فقفل إلى بيت الزوجية تائباً . وراه الآن إذا ظير في التطيرين يسير متأنقاً مشهوراً كما دونه ، فإذا وقع بصره على وجه نصير أو قد رشيق ابتسم ابتسامة الزهد والكبرياء . فإذا خطر لأحد من صحبه أن يداعبه أو يتحداه ابتدره قائلاً : « حسبي . . . حسبي . . . لا أريد أن أجرح قلباً بريئة »

تجيب محفوظ

أنه يجعها . وأن النداء يبرح به سريرة أخرى . وصادف اكتشافه لحقيقة عواطفه تراخي انقضاء واستسلامها فلم يقف ولم يتراجع كما كان اعترم . بل شد على يديها في حماس دافق واندهما معاً في سبيل الحب . وفتحت له نفسها وبسطت أمام ناظرته صفحة حياتها البسيطة فلم فوق ما كان يعلم عنها أنها تعيش مع أمها وخالتها ، وأنهما في غير حاجة مادية إليها وقد أكدت له ذلك تأكيداً لم يخف عليه معزاه . أما هو فأخفى عنها جل نفسه فلم يدر لها بخلد أنه زوج وأنه إلى درجة ما عريس . وكان هذا ما يكدر صفوه وينترعه من سكرة أحلامه، فمثل للصلة التي بينهما لا يمكن أن تدوم قائمة باللقاء صباح الجمعة بمحديقة الوطن بهليوبوليس، وساء الأحد بسينار كس . وفضلاً عن ذلك لا يمكن أن يتفاضى طويلاً عن تلميحتها المستمر إلى موضوع الزواج . فلم يردأ — حرصاً منه على الاحتفاظ بها — من مجاراتها في أحاديثها فإلبث أن جرى ذكر الزواج على لسانيهما وناقشا على اعتبار أنه النهاية التي تهفو إليها نفساها

وخطت درية خطوة أخرى فدعت إلى زيارة بيتها لتقدمه إلى أمها وخالتها . منالك أسقط في يده لأنه ما كان يستطيع أن يلبي الدعوة ولا كان يدري كيف يرفضها ، والاعتذار لا يفتى عن حاله طويلاً . ذاعسى أن يفعل ؟ أبلوذ بالفرار ويحتفي من أفتها إلى الأبد؟ قد يبدو هذا الحل على ما فيه من تذالة أوفق الحلول، ولكنه لم يستطع على شدة حرجه أن يأخذ به ، لأنه كان انغمالي الزاج لا يزع نفسه عن هوى . وكان في الحق قد غدا مستهماً بها كفاً . فألف صورتها وحديثها وإعماها ألفة مازجت روحه وسمادته . فهل يعترف لها بالحقيقة ويسألها المغفرة . . . ولا هذا استطاع لأنه أشفق من أن يأخذها الارتياح فتتفر من خداعه . أو تياس منه فيتصرف قلبها عنه . واشتدت به الحيرة وساورته الموم وتشتت عقله بين شعاب مظالمه . وما فتى بماطل ويسوف . وما يدري كيف يوفق بين هواه الجامح وظروفه القاسية . . حتى تبرعت المصادفات بالحل الموفق

وكان لليوم الجمعة وقد عاد إلى بيته . وكان يساكن سماه .